

الحرب على العراق ستولد ثقافة نضال جديدة في العالم

عبد الرؤوف سنو
الجامعة اللبنانية

في مقال جريء (إني أتهم) للروائي إميل زولا، وفي بيان له مع مفكرين آخرين (بيان المثقفين - كانون الثاني 1898) اتهم هؤلاء السلطات العسكرية والمدنية الفرنسية بالكذب والخداع في قضية الضابط اليهودي دريفوس. أهمية الرسالة والبيان أنهما أكدتا دور المثقف في محاربة الظلم والدفاع عن قضايا أمته العادلة. وهما تظهران في الوقت نفسه مكان القوة التي يمتلكها المثقفون لتغيير مجتمعاتهم والوقوف في وجه السلطات الغاشمة. وبعد ربع قرن على ذلك، أشار المفكر الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي إلى صعوبات التغيير في المجتمعات المتقدمة، وإلى القوى الحاكمة التي لا تمارس هيمنة عسكرية وسياسية فحسب، بل تهيمن على الثقافة أيضاً.

هاتان المسألتان تشيران بكل وضوح إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين المثقف ومجتمعه، وفي التأثير المتبادل بينهما. وفي عالمنا العربي المعاصر، فلا وجود لزولا "عربي" ولا لـ "بيان المثقفين" يشرح (= يفضح) الأنظمة العربية بالأسماء وسياساتها ومصالحها الخاصة الضيقة وعلاقاتها بالإمبريالية الأحادية الجديدة المتمثلة في الولايات المتحدة الأميركية، ويقول للحكام العرب إنهم يكذبون على شعوبهم وأمتهم، في ما يتعلق بموقفهم من الانتفاضة الفلسطينية، وإنهم يتحدثون بلسان التضامن مع العراق تجاه ما يتعرض له، فيما هو أشد توكفاً للقضاء على النظام العراقي وما يستتبع ذلك من احتلال لهذا البلد ونهب موارده، والسبب في ذلك ليس، معاذ الله، لأنهم إصلاحيون والنظام العراقي فاسد دكتاتوري، بل لأن صاحب النظام في العراق تحدى الولايات المتحدة، شريان الحياة للأنظمة العربية. وكل ذلك يعود إلى أن المثقف العربي لا يلعب دوره في الدفاع عن مجتمعه، بل يجعل من نفسه وسيطاً أو وكيلاً أو عميلاً ما بين الدولة أو السلطة الحاكمة والمجتمع الذي ينتمي إليه. وإن قبول المثقف بهذا الدور، جعله بوقاً إيديولوجياً وعقائدياً للسلطة المهيمنة. وقد يكون السعي وراء لقمة العيش، أو الخشية من السلطة الجائرة (= الحاجة المادية وحالة الخوف) وراء مواقف الكثير من المثقفين. لكن، ألم يكن هذا الموقف هو الذي وجد زولا نفسه فيه عندما أصدر مقاله وبيانه؟ ألم يدفع غرامشي سنوات عمره في السجن نتيجة انتقاداته لموسوليني؟

وما يثير الأسى والحزن، هو تضارب الخطاب الثقافي العربي، أي البلبلّة وعدم وجود "بيان" واحد للمثقفين العرب. في الكويت ودول خليج أخرى، ينجرف المثقفون وراء الموقف الرسمي لحكوماتهم القاضي بمعاقبة العراق عن "جريمة" لا تُعترف ارتكبتها قبل إثني عشرة عاماً. فينزولون في تظاهرات، ليست من أجل رفض الاحتلال الأميركي للعراق، بل احتجاجاً على قصف عراقي لبلدهم، الذي تنطلق منه جحافل الغزاة. وفي مصر، يقف المثقفون ضد الاحتلال الأميركي للعراق، لكنهم لا ينتقدون أو لا يجروؤن على انتقاد موقف حكومتهم واستجدها بضعة ملايين من الدولارات من واشنطن بحجة تأثير الحرب في اقتصادها كتمن لسكوتها عما يجري على بلد عربي. وكذلك يفعل مثقفو الأردن وعلماء الدين في السعودية. فتبقى خطاباتهم ومواقفهم في مجال التنظير والمناورة الخطابية. وفي لبنان وسورية، خطاب آخر للمثقفين متقدم عما هو عليه في بقية البلدان العربية. فهل ستؤدي نتائج الحرب وتداعياتها إلى وحدة بيان للمثقفين العرب، تعكس تحولهم من وسطاء للأنظمة العربية الحاكمة إلى مدافعين عن مجتمعاتهم وقضاياها المصيرية؟

وبالنسبة إلى آثار الحرب على علاقات الشعوب في ما بينها في العالم، أعتقد أن مواقف الكنائس العالمية والفاثيكان تحديداً، وخروج الشعوب المسيحية في أنحاء العالم للتعبير عن رفضها للحرب على العراق، يحدض مقولة صراع الحضارات، أي الصراع بين المسيحية والإسلام، وهذا يضرب بعمق المقولة التي جرى ترويجها من

قبل الإدارة الأميركية حول الصراع بين الإسلام والمسيحية بعد الحادي عشر من أيلول 2001. كما يدل أيضاً على حالة الانقسام بين الأنظمة الحاكمة في الغرب (= الولايات المتحدة وما تجره معها من دول) وبين شعوبها، التي لم تخرج للتعبير عن رفضها للحرب فحسب، بل أيضاً للإيديولوجيا المعبئة حول صراع الثقافات.

ومن المؤكد أن الحرب على العراق بكل تداعياتها المنتظرة، وسواء قاوم العراقيون بنجاح، أو تمكن الغزاة الأميركيين من دخول بغداد في آخر الأمر، ستخلق ثقافة نضال جديدة في العالم كله تقوم على التحدي والاستجابة للتحدي والإيمان بقدرات الشعوب على مواجهة النظام الأميركي الإمبريالي الأحادي. كما ستزيد الحرب من مشاعر العروبة الثقافية، وستؤجج النزعة الأصولية الإسلامية والدعوة إلى الجهاد، ليس في أوساط الطبقات الشعبية فحسب، وإنما لدى المثقفين أيضاً. فأميركا لن تحتل الأرض فحسب، بل ستسحق مقومات الثقافة العربية والثقافة الإسلامية، ومعهما الإرادة العربية.

عقب اجتياح مخيم جنين في نيسان المنصرم، ازداد الاتداد إلى الحجاب في مصر وانتشرت الأصولية (من دون لحي) لدى طلبة الجامعات، بعدما اعتبر كل هؤلاء أن في العودة إلى الإسلام السبيل الوحيد للتغلب على الضعف والانهازم العربيين ومحاربة العدو. فهل يكون الارتداد إلى العروبة والإسلام بداية الطريق إلى اكتشاف الذات العربية؟

أخيراً، نعتقد أن الحرب على العراق ستقضي على العولمة "الحالية" بإيجابياتها وسلبياتها، التي جرى ترويجها بانفتاح العالم على بعضه بعضاً، تجارة وثقافة وقيماً الخ.. ففي حال انتصرت الولايات المتحدة في حربها على العراق، ستكون هناك عولمة أحادية تفرضها هذه الدولة لوحدها على الآخرين، ولن ترضى واشنطن "شراكة عولمة" مع آخرين.